قراءة في كتاب «العقلانية النقدية عند كارل بوبر» (1 من 2)

تعامل مع الاصولية باعتبارها الأجل المحتوم للمعرفة ورأى ان الاختلاف في الرأي قد يؤدي إلى النزاع و العنف

رجل العلم متحيز بالطبع ويتأثر بالأحكام والتعميمات الجاهزة والقبلية والحياد يتوفر فقط بالاشتغال الجمعي النقدي

عرض: د. سعيد بوخليط

■ صدر عن دار النشر الفرنسية « Ellipses»، في إطار مشروعها الفلسفي : «Philo-essais» الذي يشرف عليه جون بيير زاردي، كتاب للباحثة والأستاذة الفرنسية بجامعة بورغون «روني بوفريس تتناول فيه الأسس الكبرى والثوابت المفهومية للمشروع الفلسفي الذي جاء به الفيلسوف والمفكر كارل بوبر.

لماذا إذن روني بوفريس وكتابها هذا عن عقلانية بوبر النقدية؟

اشتغلت روني بوفريس كثيرا ـ من بين أشياء أخرى ـ على فلسفة ونظريات بوبر. وترجمت له بعض أعماله من الإنكليزية إلى الفرنسية، خاصة سيرته الذاتية، كما أن بوبر نفسه، أوكل لها مراجعة الترجمة الفرنسية لعمله الذائع الصيت Misère de l'historicisme: وأعتقد بأن رجلا من حجم بوبر، لا يمكنه أن يمنح أفكاره إلا لشخص يظنه بأن له من القدرات والكفاءات ما يؤهله لذلك. وبالتالي يعترف ضمنا لـ بوفريس بهذه الأهلية. كما يخول لها رسميا أن تكون مرجعية أساسية في تيسير وتفكيك طلاسم فكر بوبر.

اعتبرت روني بوفريس عملها هذا تقديما وتبيانا لمعجم بوبر المفهومي، ساعية بذلك إلى جرد ألفبائي للمصطلحات والمفاهيم التي وظفها بوبر على امتداد مشروعه. عمل أشد ما نحتاج إليه في ثقافتنا العربية، حتى نلامس عن قرب إحدى الأدمغة المؤسسة لثقافة القرن العشرين. وقد اختارت كعنوان لمتابعتها هاته، المفهوم المركزي لبوبر أي العقلانية النقدية ما دام قد فضل دائما وضع هذا التصور كيافطة لفلسفته.

ـ أما كارل بوبر، فقد عاش ما بين 1902/1994. ترك موطنه النمسا في اتجاه نيوزيلاندا الجديدة هربا من النازية. في 1946، استقر بإنكلترا كأستاذ للمنطق بمؤسسة : London school of economics

شكل، بكتاباته ودراساته وأبحاثه، أهم فلاسفة العلم والمنهج العلمي في القرن العشرين. نذكر أهمها : منطق الاكتشاف العلمي 1934، الحدوس الافتراضية والتفنيدات 1963، المعرفة الموضوعية 1972، المجتمع المنفتح وأعداؤه 1945، عقم المذهب التاريخي 1945، تساؤل لا ينتهي : سيرة ذاتية 1976، النفس ودماغها 1977، وقد ترجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة، كما حصل على لقب سير Sir وخمس عشرة دكتوراه فخرية وكذا مجموعة من المناصب الفكرية العلمية والأكاديمية ...

ـ نحت بوبر مساحات كبيرة من التفكير الإنساني في القرن العشرين. صحيح أن أطروحاته، أصبحت اليوم مجرد «أرشيف» لهذا التفكير قياسا لتطورات العلوم الحالية، لكن في لحظتها مثلت ثورة معرفية ومفهومية ومنهجية كبيرة.

ـ لعبت النظرية الإبستمولوجية عند بوبر، دورا كبيرا في توضيح وتبسيط بعض التطورات العلمية، كما هو الحال مع نظرية النسبية وفيزياء الكوانطوم. مسألة استعصت على الكثيرين نظرا للتعقيد النظري والمفهومي الكبيرين.

ـ دافع بوبر عن البناء المستمر والدائم للحقيقة من خلال : مبدأ التكذيب Falsifiability.

ـ التأكيد البوبري poppérien المستمر على القيمة المعرفية والتاريخية لانفتاح الحقيقة العلمية حيث لم تعد هناك من قاعدة مطلقة أو بداهة واضحة بذاتها، مستندا في ذلك، على منطق ارتيابي متعدد الأبعاد، ومعبرا بنظريته عن أفق الاحتمال والممكن التي وصل إليهما تاريخ العلم.

ـ ظل بوبر يرافع لصالح المجتمع المنفتح المؤمن بقيم التعدد والاختلاف. وبالتالي، رفض كل أشكال الدوغماطيقية والتوتاليتارية التي تقود إلى أسوأ المؤسسات الاجتماعية، وكذا أوليغارشيات سياسية تحكم الناس بالحديد والنار. مجتمع يعانق مطلقا قيم الحداثة والاختلاف. وقد أصدر بوبر عملين بهذا الخصوص :

1 ـ عقم المذهب التاريخي.

2 ـ المجتمع المنفتح وأعداؤه.

وبالتالي صاغ بيانات مباشرة ضد أعداء الحياة. كما أن مفاهيمه الإبستمولوجية وخاصة تأطيره النظري لقابلية التكذيب والتفنيد Falsifiability شكلت حاجزا وسدا منيعا أمام كل تأويل يتوخى بشكل من الأشكال إعطاء مبرر معرفي أو إيديولوجي لأية نظرية تتوخى الشمولية والكليانية.

الموسوعية التي ميزت فكر بوبر:

وقد خلقت مفاهيمه تفكيرا جديدا في علاقة الذات بالعالم كما أن النظام الإبستمولوجي لمعارف القرن العشرين، عرف ثورة كوبرنيكية على مستوى النظرية والمنهج وكذا المفهوم مع قراءات من مثل تلك التي جاء بها بوبر.

وسعت روني بوفريس بعملها هذا جهرا أو تضمينا، الى نحت تجلياتها المفهومية من أجل تمثل خطاب بوبر، وكذا مختلف جدالاته ونقاشاته النظرية مع فلاسفة ينتمون لحقب زمانية مختلفة، ومدارس فكرية متباينة، انطلاقا من الخطاطة التالية: العقلانية النقدية / لهذا الغرض Ad hoc/ المعرفة الموضوعية / المحتوى/ النظريات العلمية/ تحديد / الديموقراطية/ المجتمع المنفتح/ مقولة الأساس/ قابلية التكذيب/ قابلية التزييف والتفنيد/ الرائزية/ التاريخانية/ العقل واللغة/ اللاوعي/ الاستقراء/ الوسائلية/ الليبرالية/ الماركسية/ الميتافيزيقا/ العوالم الثلاثة/ المجتمع المنغلق/ الوضعية/ القابلية/ النسبية/ الكليانية والطوباوية / التوتاليتارية/ استلاحة (التقرب من الحقيقة).

وهي ترسيمة تعكس البرنامج النظري والمنهجي الذي خطه بوبر لنفسه، متوزعا بين: منهجية العلوم، فلسفة المعرفة العامة، البيولوجيا، علم النفس، العلوم الاجتماعية، تأويلات الفيزياء الحديثة، تاريخ الفلسفة، فلسفة الأخلاق والسياسة، نظرية العلوم الاجتماعية، حيث يتحرك على أرضية فكرية متينة وعريضة مجادلا: أفلاطون وسقراط وهيغل وماركس وفتجنشتاين وهيوم وكانط... إلخ، معضدا أو مفندا لكن بمعنى يتجاوز منطق الميتافيزيقا الغربية الثنائي القيمة : إما صادق أو كاذب وليس هناك من احتمال ثالث. لأن بوبر، يؤكد على نصيب الحقيقة من الخطأ. وهو ما يهمه أكثر من الاعتقاد واليقين المطلقين.

رفض الطوباويات

لقد ظل بوبر على امتداد مشواره الفكري رافضا لكل أنواع الطوباويات والكليات والإطارات المنغلقة، بل وحتى الأفكار الرومانسية، التي تنتهي حتما بالتوتاليتارية والدوغماطيقية لأنها تستند بدءا وانتهاء على الواحدية. لم يكن من باب الصدفة إذن، أن يخرج هذا الفيلسوف الكبير آخر أعماله تحت عنوان مثير: أسطورة الإطار في دفاع عن العلم والعقلانية. يقول بوبر في تأويل لما أشرنا إليه: (وعلى الرغم من أنني معجب بالتقاليد وعلى وعي بأهميتها، فإنني في الوقت ذاته أكاد أكون مناصرا أصوليا للا ـ أصولية : إنني أستمسك بأن الأصولية Orthodoxy هي الأجل المحتوم للمعرفة، ما دام نمو المعرفة يعتمد بالكلية على وجود الاختلاف. وكما نسلم جميعا، الاختلاف في الرأي قد يؤدي إلى النزاع بل وإلى العنف. ونرى هذا أمرا بالغ السوء حقا، لأنني أستقطع العنف. غير أن الاختلاف في الرأي قد يؤدي أيضا إلى النقاش، وإلى الحجة وإلى النقد المتبادل. وإني أرى هذه الأمور ذات أهمية قصوى، وأزعم أن أوسع خطوة نحو عالم أفضل وأكثر أمنا وسلاما، قد قطعت حين وجدت حروب السيف والرمح لأول مرة من يضطلع بها، وفيما بعد حين حلت محلها في بعض الأحيان حرب الكلمات)3. وحتى تظهر بوفريس بقوة الأفق المتطور لهذا الفكر الإنساني في جوهره، أسرعت غير ممتثلة لترتيبها الألفبائي نحو الصفة التي عشق بوبر باستمرار أن يسم بها اجتهاداته الفكرية والمنهجية أي العقلانية النقدية.

فما هي إذن ملامح وتجليات هذه الفلسفة ؟ ثم كيف عملت بوفريس على توظيف ذلك في مقاربتها لفكر بوبر ؟

ظل بوبر يرفض (الماهوية) التي يعتقد بأن أصولها النظرية ترتبط أساسا بفكر أرسطو، مستبعدا في سياق ذلك النقاشات والجدالات الفلسفية التي تسعى إلى توجيه الأسئلة وكذا إيجاد الأجوبة انطلاقا من البحث في الـ«ماذا» ؟ داعيا بالخصوص إلى تحليل القضية انطلاقا مما سماه بـ «أوضاع القضية».

لقد تأسست العقلانية ضدا على الاعتباطية، وبالتالي تفسيرا للوقائع بأن تجد لها تعليلاتها وتأكيداتها والتدليل عليها بالبراهين والحجج ثم العلل، مما يحتم إيجاد أرضية أساس تشكل هذا اليقين الذي يمكن من إقامة ثابت لمعرفتنا. في سبيل ذلك، اقتسم اتجاهان تاريخ المعرفة :

1ـ الاتجاه العقلاني، والذي ارتبط بتيار فكري يمتد من أفلاطون إلى ديكارت.

2 ـ في حين سعى الاتجاه التجريبي، الى الرهان على معطيات الحواس ودفاعه عن التجربة كأساس لصياغة المعرفة الأولى.

إلا أن التصورين معا، تعرضا للإخفاق، ووصلا إلى الباب المسدود. فلا شك أن أكثر الأفكار انسجاما ووضوحا وبساطة وبداهة تظهر في الغالب خاطئة ما ان نتوخى التأثير في العالم. أما المسار التجريبي، فقد تعرض بدوره للإخفاق، لأن التجربة وحتى عبر سلسلة لا نهائية، تظل عاجزة عن معرفة الحقائق العامة التي قد تشكل أساسا لمعرفتنا.

لا يمكن إذن مطلقا الدفاع عن وجهة النظر التجريبية أو العقلانية، الشيء الذي يعطي معه حيزا لأكبر الاتجاهات اللاعقلانية والصيغ الشكية التي تؤكد أن لا شيء يمكنه البرهنة على كون معرفتنا حقيقية وتدرك الواقع. وضعية يائسة بالتأكيد ! لذا يجب الإقرار بالمعطيات التالية :

– لا يمكن مطلقا تجنب الخطأ، لأنه ليس هناك جوهر يقيني لمعرفتنا.

– حينما نقر بالخطأ، قد نتمكن من البرهنة عليه.

يقوم المبدأ الأساسي لعقلانية بوبر على التصور التالي : يجب أن نضع موضع اختبار كل ما لدينا من أفكار ، أي لا يمكن تأكيد قيمة وتقريرها إلا بعد البرهنة عليها، التجربة سبيلنا إلى ذلك. وسواء كان الاختبار إيجابيا أو سلبيا فإن استفادة الذات تكون مزدوجة. وتكتسب البرهان في الحالتين: (إذا تم دحض نظريتي، فإن عدد النظريات التي لا زالت قائمة قد تقلص. أما إذا صمدت أمام هذا الدحض، فإنني أكتسبها بنوع من الصلابة) (ص7). فإجرائية نظرية وقوتها، تتجلى أساسا في قابليتها للتكذيب والدحض وليس العكس أي صمودها أمام التجربة كما ظل الاعتقاد غالبا.

لذا فإن العقلانية النقدية، تشير حتما إلى ضرورة أن نتملص من النظريات اليقينية الاعتقادية، ونأخذ أساسا بالنظريات الجريئة والغنية أي تلك القابلية للتزييف والتكذيب.

التفنيد والدحض معطى إيجابي للنظرية يعطيها صرامة وقوة أكثر حينما يتم تأكيدها للمرة الثانية بالتجربة. وبالتالي ، فالذات حينما تكتسب معرفة انطلاقا من دحضها أولا، فإن ذلك يقوم عندها بنوع من الصلابة والمتانة.

لا يجب بتاتا، الإيمان بثبات وإطلاقية نظرية ما. فالعقلانية النقدية، تؤكد بأن النظرية تظل مجرد فرضية حتى ولو اجتازت مجموعة من الروائز والاختبارات بنجاح، فاليقين جهل وموت. ولا أدل على ذلك من الثورة التي حققتها نسبية اينشتاين في علاقتها بالعلم النيوتوني، وكيف أبرزت ما يمكن تسميته بإبستمولوجيا الخطأ.

على ضوء ذلك، أكد بوبر على قابلية العلوم التجريبية للخطأ ناظرا إليها كـ«دوكسا» استنادا على التمييز الأفلاطوني بين الإبستيمي والدوكسا، نظرا لواقعية وحقيقة الخطاب مع الأول والتباسه وتقلبه في الثاني.

لا يمتلك العلم الحقيقة، بل يتوخاها من خلال ديناميتها في بحث دائم عن نمو هذه الحقيقة وتطورها. تطور يأخذ خطا لا نهائيا، ما دام أنه يستلهم بشكل دائم المنهجية والرؤية النقديتين. توقف هذه الحقيقة، لا يعني بأنها قد وصلت المطلق، ولكن ذلك يفسر بأن قضيتها أصبحت بلا معنى. وحينما يخرج هذا العلم إلى العالم، نظرا لكونه جزءا من الكون وتحولاته فعليه الانفلات من كل تعامل حتمي مع هذا العالم.

القطيعة مع العقلانية التقليدية

حققت ميتولوجيا بوبر وعقلانيته السالبة قطيعة كبرى مع الفهم المألوف والمعتاد لما يصطلح عليه بـ «العقلانية»، والتي هي وجه كلي للدوغماطيقية حينما ننطلق من مبدأ جوهر، نتوخى به أساسا ويقينا ثابتين ثم نستبعد كل شيء لم نتأكد من حقيقته.

اعتبر الخطأ مع الكلاسيكيين، سواء كانوا عقلانيين أو تجريبيين بمثابة زلة ، لأن صاحبه أخفق في الإمساك بهذا المصدر الأساسي والخالص للمعرفة. بداهة الحدس عند العقلانيين ومعطيات الحواس عند دعاة التجربة، سلطة الواحدية في نهاية المطاف.

لذا سعى بوبر بفكرة التخلص من مرجعية كتلك، بإيجاد الأسس الإبستمولوجية لعقلانية جديدة غير سلطوية، تتميز بتعدديتها وانفتاحها لأنها نقدية أساسية. تقطع بلا شك مع تلك العقلانية الدوغماطيقية الزائفة :

× تسلم هذه العقلانية الجديدة بالخطأ، كمصدر مسلم به للحقيقة. وفي المقابل، لا تمنح أي امتياز للحواس أو الحدس وجعلهما مصدرين للمعرفة.

× لا يمكن كذلك البحث عن يقين، في حين نحتاج إلى معيار لاختبار وتمييز النظريات.

× ليس صحيحا، النظر إلى الخطأ كصخب، بل يجب التعامل معه كشيء طبيعي. الخطأ لا يمكن تجنبه، ولكن فقط نستبعده.

× الدفاع عن الحوار والإقرار به وتخصيب وجهات النظر، يؤدي حتما إلى تأسيس معرفة صحيحة.

× تطبيق العقلانية النقدية في كل المبادئ والتخصصات : العلوم الإنسانية وعلوم الطبيعة، مؤمنة بجدلية التحقق وكذا ارتكاب الخطأ. لكن باكتشافها لأخطائها تتقدم وتتطور.

يحدد بوبر إذن بعقلانيته النقدية، مجموع الفلسفة التي يتوخى الاشتغال عليها أي الفلسفة السياسية وفلسفة العلوم، مع إقرار كلي بجهلنا وقابليتنا للخطأ.

تعتقد بوفريس بأن الأصل الفكري لمنهجية بوبر تمتد إلى الفيلسوف اليوناني سقراط وتتحقق تاريخيا في ارتباط أنطولوجي بحتمية (المجتمع المنفتح)، حيث تحل الأفكار محل العنف.

إن منهجية بوبر التزييفية، حالت بينه وبين كل توظيف أو التجاء إلى «الاستراتيجيات المحصنة»، من بينها مثلا فرضيات «لهذا الغرض» Adhoc وقد حث بوبر على استبعادها. فرضيات يتم توظيفها للإجابة على قضية خاصة. لكن يمكن الالتجاء إلى فرضيات مساعدة، شريطة قابليتها للاختبار والتجربة.

ما هي خصوصية التزييف عند بوبر مقارنة مع معيار التحقق عند حلقة فيينا، هل المفهوم ذاته من الناحية الإبستمولوجية ؟ معيار التحقق عند أصحاب فيينا هو كذلك معيار دلالة، لذا ميزت الحلقة بين علم يشترط المعنى والميتافيزيقا التي تشبه قضاياها «رطانة».

التزييف عند بوبر غير وضعي ولا تحققي. لذلك، عبر عن استيائه بعد نقل كتابه : Misère l'historicisme de، إلى الفرنسية نظرا لترجمة مصطلحه : Test بـ Vérification.

كل مهمة لفلسفة العلوم، تقوم على محاربة وتجاوز مختلف أشكال الدوغماطيقا ، وبالتالي السعي إلى معالجة الإشكال الكانطي : كيف يمكننا تمييز الخطاب العلمي عن آخر غير علمي. هل نتوخى ذلك بالاستقراء باعتباره منهجية العلوم التجريبية وفي تقابل مع تنظيرات الميتافيزيقا، والاستنباط الرياضي. لكن ما أظهره بوبر، هو أن كل هؤلاء الذين يجعلون من المسار الاستقرائي مفتاح المنهجية العلمية غير قادرين على إعطاء معيار للعلم التجريبي، وبالتالي من اللازم اقتراح شيء آخر (ص12).

يتجه هذا المجهود التحديدي إلى بعض القضايا شبه العلمية والتي تتوخى العلمية إذا أمكننا الإشارة سابقا إلى حقول معرفية مثل : علم التنجيم والخيمياء والميتافيزيقا. وفي عصرنا الحديث نشير إلى التحليل النفسي والماركسية، باعتبارهما أنظمة تأويلية قوية، تبحث دائما فيما وراء السلوكات الفردية أو الاجتماعية عن شبكة من التفسيرات الثاوية. والتي تتمظهر أنظمتها الرمزية سواء من خلال الذات الفردية أو المجموعة الاجتماعية.

منظور بوبر إلى العلم تطوري، ويقوم على مبدأ الدحض، لهذا ينفي صفة العلمية عن الأنساق التي لا تتطور وتأخذ سياقا دوغماطيقيا.

هل معيار التحقق Vérifiabilité، فاصل أساسي لتأكيد علمية الماركسية والتحليل النفسي أم لا ؟ فقد أكدت مجموعة من الوقائع صحة كثير من تأويلاتهما. إضافة إلى أن أخذ مفهوم التحقق مطلقا، يقصي بشكل تعسفي مجموعة من النتائج المحتملة. ماذا يمكن أن نقول مثلا عن النظرية الإينشتاينية التي لا تحيل إلا لاثنين أو ثلاث «تحققات» واضحة ! لذلك من الضروري فقط تكذيب العبارة العلمية وليس التحقق منها.

على أساس هذا المبدأ، يفصل بوبر بين العلم الواقعي والأنساق التأويلية. فهذه الأخيرة غير قابلة للدحض لأنها لا تستبعد أية واقعة محتملة. كما أن التأويلات الماركسية وكذا تلك التي جاء بها التحليل النفسي تنضبط وتتكيف مع كل الحالات، مما يستحيل معه إيجاد براهين يمكن أن تبطل نتائج هذين العلمين: (ما ان تفتحوا أعينكم عليها، حتى تروا أمثلة تؤكدها في كل مكان) (ص13).

لكن وانسجاما مع ثوابت العقلانية النقدية، فإن عدم قابلية هذه الأنساق للدحض، لا يدل على قوتها وتماسكها. بل في حقيقة الأمر، يظهر ذلك ضعفها ووهنها: (توخي أقصى ربح يؤدي في واقع الأمر إلى خسران كل شيء. إن نظرية لا تسعى إلى المجازفة بالفشل، لا يمكنها النجاح أبدا) (ص 14).

قدر ما يتوخى التحليل النفسي تأكيد علميته، جاعلا نظرياته فوق كل دحض وتفنيد (متوهما بذلك العلمية)، فإنه يضع نفسه خارج معيار التحديد عند بوبر. فما يعطي لنظرية ما قيمة تأكيدها العلمي، يتجلى أساسا في قدرة صاحبها النظرية والمفهومية على أن يقدم منذ البداية الشروط التي تمكن من تزييف وتكذيب نظريته أي المجازفة بالغلط : المثال النموذجي الذي يتعارض مع موقف المفسرين الماركسيين وكذا المحللين النفسانيين، هو ذلك الذي جاء به إينشتاين مقرا بأن يعتمد في كل نظريته عن النسبية العامة على تجربة واحدة منذ كسوف ايار (مايو) 1919 (ص14). لقد كانت نظرية إينشتاين Einstein متعارضة مع بعض النتائج المحتملة للملاحظة.

كارل بوبر

على العلم أن يثير ويستفز ويجازف، وليس المطلوب منه أن يلهث وراء مساحات للأمان والائتمان. وكل نظرية لا يتأتى لها ذلك، أو لا تعطي لنفسها إمكانية كتلك، تتحول بالتأكيد إلى دوغما وبالتالي تقترب من الدين وتقطع كليا مع العلم.

يؤاخذ بوبر ـ مع جزمه بأن قسما كبيرا مما قاله فرويد Freud وأدلر، وملاحظاتهما المهمة قد يلعب دورا كبيرا في صياغة علم سيكولوجي قابل للاختبار ـ على التحليل النفسي : (الخاصية الدائرية لأغلب التبريرات النفسانية ونزوعها إلى أن تصير واقعا لذاتها) (ص15). ذلك أن التفسيرات السيكولوجية، تنزع غالبا إلى الاستناد على تطبيقاتها السالفة، وبالتالي تعميمها للتأكيدات والحقائق. كما قد يتم الاعتقاد في علمية التحليل النفسي، نظرا لاستناده على ملاحظات إكلينيكية. لكننا ننسى كون هذه الملاحظات هي بدورها: (تأويلات على ضوء نظريات) (ص 16).

موضوعية المعرفة والدفاع عنها

يدافع بوبر عن موضوعية المعرفة. مسألة يمكن أن تفهم من خلال منحنيين:

1 ـ الوجود الفعلي والواقعي للعالم. لذا فإن العلم يتكلم عن عالم واقعي موجود أساسا.

2 ـ تنفصل المعرفة عن الذات.

تصورات كتلك، تقوم ضد التأويلات الذاتية للفيزياء المعاصرة، منطق حكمها لفترات طويلة. تتأتى المعرفة الذاتية من هذه العلاقة السلبية المنقادة وراء أشياء العالم. وهو الاعتقاد الذي قامت عليه الأطروحات المفهومية للإبستمولوجيات التجريبية. في حين يؤكد الاتجاه العقلاني على أن المعرفة بناء ذهني.

يميز بوبر بين المعرفة الذاتية وكذا الموضوعية. تتأتى الأولى من موقف سلبي أولي بالأشياء نتيجة: «اعتقاداتنا وانتظاراتنا ثم استعداداتنا للتأثير»، ثم المعرفة الموضوعية وهي تقوم على نظريات مرتبطة بعلاقات محض منطقية وتشكلت لسانيا. يرفض بوبر أيضا، أن اليقين بإمكانه إثبات مقولة ما مهما كان قويا. يقول بشكل جازم : (لا أؤمن بالاعتقاد) (ص 16) والأساسي، هو أن يخضع رجل العلم نظريته على ضوء معايير عقلانية، وانتقاد النظريات التي تمت صياغتها موضوعيا. لذلك فإن : الاستقرائي الذي يؤمن بالتراكم السلبي للملاحظات لا يمكنه إلا الخلط بين الموضوعي والذاتي. ثم المسار العلمي والاعتقادات الإحيائية) ص18).

توظيف بوبر لمفاهيم الذاتي والموضوعي، يجعله قريبا من كانط لأن المعرفة الموضوعية عنده تعني تلك المعرفة التي يمكن تبليغها إلى كل العقول أي تأكيدا لحقيقة الحكم وتكون كذلك مقبولة بين الذوات. إلا أن مبدأ التزييف عند بوبر يفصله عن كانط.

يستحيل حسب بوبر الحديث عن تجرد مطلق لرجل العلم عن الأحكام والتعميمات الجاهزة والقبلية. فالتحيز العاطفي والوجداني قدر لا مناص منه. لكن الاشتغال الجماعي على المنهجية النقدية، يعطي إمكانية للانفلات والتخلص من هذا النزوع الفردي والسيكولوجي لظاهرة العلم.

انتقلت بوفريس بعد ذلك إلى حديث بوبر عن نمو النظرية العلمية وماهية المحتوى المنطقي لنظرية ما. يؤكد الفيلسوف من جديد قائلا: ليس هناك إلا طريق واحدة من أجل تقديم دلائل عقلانية لصالح اقتراحاتي. وهو تحليل نتائجها المنطقية : إظهار خصوبتها، وكذا قدرتها على توضيح نظرية المعرفة (ص 20)، يتجلى المحتوى المنطقي لنظرية ما في صنف كل نتائجها اللاحشوية (ص19)، ومشيرا إلى ما سماه بالمحتوى الإخباري لنظرية ما. تلك النظرية التي تستبعد حالة أشياء ممكنة وتكون أقل احتمالا لذلك فهي إخبارية.

كيف يفهم بوبر قضية تطور المعرفة؟

إذا كان بوبر إصلاحيا على مستوى السياسة، فإنه آمن بـ«الثورة الدائمة» على مستوى العلم. هناك تطور مستمر ولا نهائي للنظريات العلمية بشكل منفصل ومتعارض. لكن مع ذلك، فإن نظرية جديدة لا يمكنها إسقاط الأخرى إلا إذا :

(1 أدركت كل ما جاءت به النظرية السابقة، إنه البعد المحافظ لتطور المعرفة.

2) إذا كان بإمكانها فهم بعض الوقائع التي لم تفسرها النظريات السابقة. هل عوضت إذن نظرية « نظرية Fresnel» وهل كان بإمكان نظرية نيوتن الحلول محل تلك التي جاء بها غاليلي، وهل تمكن إينشتاين بنظريته خلافة نيوتن بمفاهيم أخرى، تصير النظرية المتجاوزة في كل مرة مقاربة للنظريات الجديدة. فالنظريات لا تتوقف عن التطور(ص 20).

هذا المبدأ المعرفي، لا يماثله تطور أو موت الإيديولوجيات. فإذا كان العلم يرفض كل ارتداد، فإن الإيديولوجيات الدوغماطيقية أي تلك التي ترفض الاستفادة من أخطائها قد لا يكون لها نفس المصير الوردي الذي تعيشه النظرية العلمية: كذلك لا تموت كليا، بل قد تظهر من جديد في أية لحظة (ص 20).

يجب إذن التمييز بين الثورة العلمية والإيديولوجية، حتى وإن كانت بعض التصورات العلمية كما كان الشأن مع : كوبرنيك داروين وإينشتاين قد ضاعفتها ثورات إيديولوجية.

إن معرفتنا تتوخى الحقيقة أساسا. وإن كان بوبر قد أقر بعدم جدوى وصف نمو المعرفة وكذا قضية العلم بمفاهيم الحقيقة، لأنه ليس هناك إلا «اللامزيف». لذلك، فإن الخطأ هو المطلق الوحيد الذي يمكن أن يعرفه رجل العلم. فالتكلم عن نظرية علمية بمنطق الحقيقة يعني ضمنيا استبعادا للخطأ.

يقترح إذن بوبر صياغة جديدة، وأفقا مغايرا، يلامس التناقض السابق بمفهوم التقرب من الحقيقة أو الحقائقية Vérisimilitude والتي تنطوي على فكرتين : محتوى النظرية /فكرة الحقيقة.

إجمالا يحدد بوبر شروط الفكر العلمي في :

1 ـ على الرغم من تأكيده على التفنيد، فإنه من الضروري كذلك الأخذ والإقرار بالنجاحات الإيجابية، أي على النظرية تقديم بعض التقديرات الجديدة التي تم اختبارها فعليا.

2 ـ لا يجب دحض النظرية قبل الأوان والإسراع نحو ذلك.

3 ـ ليس من اللازم دائما توخي نجاح نظرياتنا. صحيح أن ذلك ما يعطي للعلم خاصيته العلمية، إلا أن الأمر على هذه الشاكلة قد يستوجب كذلك خطر الدوغماطيقية.

4 ـ على رجل العلم الدفاع عن نظرياته ضد كل الانتقادات السهلة، حتى وإن تطلب الأمر إخضاعها للروائز.

5 ـ لتطور العلم، يتحتم توفر الشروط والمعطيات التالية :

ـ استحضار الخاصية اللانهائية لجهلنا.

ـ وجود رخاء اقتصادي.

ـ ينتعش ويزدهر الفكر النقدي مع انتفاء كلي لشروط الاستبداد السياسي. ذلك أن :الاستبداد والمستبدون يحطمون العلم مطلقا) ص17).

كيف استعاد بوبر الإشكالية الكانطية، توخيا لإيجاد معيار من أجل الفصل بين العلم والميتافيزيقا ؟ ثم البحث في طبيعة الصراع بين الخطابين وادعاءاتهما للحقيقة.

يرفض بوبر المعيار الاستقرائي الذي جاء به هوم ورغم تقديره لهذا الأخير، فقد اعتبر بوبر الاستقراء أسطورة ولا يمكن أن يكون (تحققا) لأن هذا المبدأ يؤدي إلى استبعاد القوانين الكلية، ليجده بوبر في إمكانية الدحض عن طريق التجربة: (لكن معيار الفصل البوبري ليس معيار دلالة، على العكس مما يقترحه الوضعيون الجدد. والتحديد بين العلم واللاعلم ، ليس فصلا بين المعنى واللامعنى(ص 23).

ولأن على النظرية العلمية أن تكون جريئة ومجازفة باستمرار، فقد آخذ على التحليل النفسي والماركسية سعيهما باستمرار حتى يتلاءما وينسجما مع كل الوقائع التي يمكن ملاحظتها. وكل نظرية تتبنى هذا المعنى، ليست علمية يؤكد بوبر. لكن باحثا مثل بارتي ، يعتقد بأن فصل وتمييز بوبر بين الخطاب الدوغماطيقي، وكذا الخطاب المنفتح باستمرار على النقد، كان أكثر أهمية من فصله بين العلم والميتافيزيقا.

من جهة أخرى، وعلى مستوى التجربة السياسية للمجتمعات المعاصرة، ظل الاعتقاد بأن الديموقراطية هي المثال المطلق الذي يعكس ويجسد سياسة الشعب. لكن بوبر يفهم الأمر على نحو ثان ومختلف، مؤكدا من جديد في حوار أجراه معه بودوان عام 1989 على : عدوانيته الصميمية حيال المفهوم الشائع للديموقراطية (ص 23)، إنها : قبل كل شيء منهجية تمكن من تجنب الاستبداد وعزل أسوأ المسؤولين (ص 23).

لا يوجد أساسا حسب بوبر سوى نظامي : الديموقراطية والديكتاتورية. ويضيف بأن الديمقراطية نظام يخول الحكومات إمكانية التغير داخله دون أن يكون هناك سفك للدماء بوسيلة كالانتخابات: (هذا التعريف لا يأخذ معناه إلا في تضاد مع تعريفين آخرين ممكنين. من جهة، ليست الديموقراطية قانونا للأغلبية. حتى ولو كانت عمليا قاعدة الأغلبية هاته هي الأقل خطرا، إذا كنا نتوخى تجنب الأهلية. لكن من جهة، لا يجب أن ننسى كون الأغلبية يمكن أن تكون ديكتاتورية). (ص 24)، بل إن هذه الأغلبية يمكن أن تصوت لحزب يعارض المؤسسات الحرة. فالمهم عند بوبر ، يتمثل أساسا في الدفاع عن الفكر الحر واحترام قوانين الأقلية الفكرية والسياسية. إنه جوهر الديموقراطية في رأيه.

كما أنه ليس من الضروري، أن نفهم بأن الديموقراطية دفاع عن حرية جامحة ومطلقة. فالحرية تتحدد تبعا للآخرين، وتظهر قيمة هذا المفهوم خاصة على مستوى الحياة الاقتصادية. ذلك أن جموح الليبرالية قاد إلى الاستغلال. من ثم يلح بوبر على ضرورة تدخل الدولة.

الديموقراطية أقصى درجة للعقلانية السياسية. قد تظهر كذلك كنظام سلبي في صورة متناقضة، ما دام يجب في نفس الآن الصراع ضد أولئك الذين يرفضون أو يهددون الديموقراطية. لكن من الضروري، أن نؤمن بأن الديموقراطية لا تدعي تقديم سياسية جديدة، بل كونها بالأحرى تجنبنا الأسوأ.

وبالتأكيد فإن هجومات بوبر العنيفة ضد بعض الفلاسفة الذين ألهموا «الرومانسية التوتاليتارية»، كأفلاطون وهيغل ثم في مرحلة تالية ماركس، تدخل دائما ضمن سياق وأفق الدفاع عن الأسس المتينة التي يمكنها تحصين المجتمع ضد كل رجعية سياسية.

بوبر الذي ترك موطنه الأصلي هربا من النازية، اعتبر كذلك ما كتبه بين 1938/1945 مجهوده الحربي ضد الفاشية والنازية، وأنظمتهما التوتاليتارية. والمقصود بالتوتاليتارية: (نظام سياسي تدير فيه الجماعة بشكل سيادي المجتمع، وتمارس ضبطا مطلقا على الأفراد وأنشطتهم الاجتماعية). «المميزات : وجود حزب وحيد، انصهار السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية ...إلخ») ص 26).

يؤكد بوبر أنه يستمد إلهامه الأصلي فيما يخص التوتاليتارية من أفلاطون Platon حيث لم يكن هجومه عليه في حقيقة الأمر إلا تقديرا وإعجابا مضمرين بفلسفة وشخصية أفلاطون، على العكس من موقفه اتجاه هيغل . يقول على لسان أفلاطون «أعظم الرجال هم الذين يمكنهم ارتكاب أكبر الأخطاء».

لكن تقديره لأفلاطون، لم يكن أكثر من تأكيده على الوزن الفكري الكبير لسقراط Socrate وموقفه الفلسفي دفاعا عن الديموقراطية والعقلانية النقدية. وبالتالي فهو من المنظرين الأوائل للمجتمع المنفتح.

لقد دافع أفلاطون عن المجتمع المنغلق، واضعا مخططا جديدا لكي نجد ثانية وبدعم من الشعب أو عن طريق الديكتاتورين المستنيرين مثل سيركوس الإيقاع التراتبي للمجتمع المنغلق والذي تتجلى أهم مظاهره في:

1 ـ حالة التراتبية التي يعيشها هذا المجتمع : حراس، محاربون، وعمال. دولة مثالية : يقبل فيها كل واحد بمكانه داخل الكل. أي في الواقع، دولة تقوم على التراتبية الأكثر صلابة، والاختلافات الأكثر صرامة بين الطبقات (ص 27).

2 ـ أن تتجنب الطبقة المهيمنة الصراعات. حتى تبقى عند ما يسميه بوبر بـ السوفوقراطية مسألة تحتم.

3 ـ أن لا تشارك الطبقة المهيمنة في الحياة الاقتصادية.

4 ـ شيوعية المحاربين.

5 ـ إقامة نظام تربوي، لا يترك أية فرصة لظهور ملكات النقد الحر، بل من الضروري تشكيل وتكوين نخب من أجل القيام بهذه المهمة.

6 ـ المحافظة بصرامة على النقاء العرقي للطبقة المهيمنة.

7 ـ للمسؤولين الحق في مراقبة الحقيقة وممارسة الكذب.

8 ـ إبقاء الدولة على التفاوتات، والخضوع لنظام صارم جدا.

تتحدد العدالة المثالية حسب أفلاطون في ضمان استقرار الدولة، مما يحتم ضرورة التضحية بالفرد لصالح الدولة. وبذلك اعتبر أفلاطون أكبر منظر للتوتاليتارية.

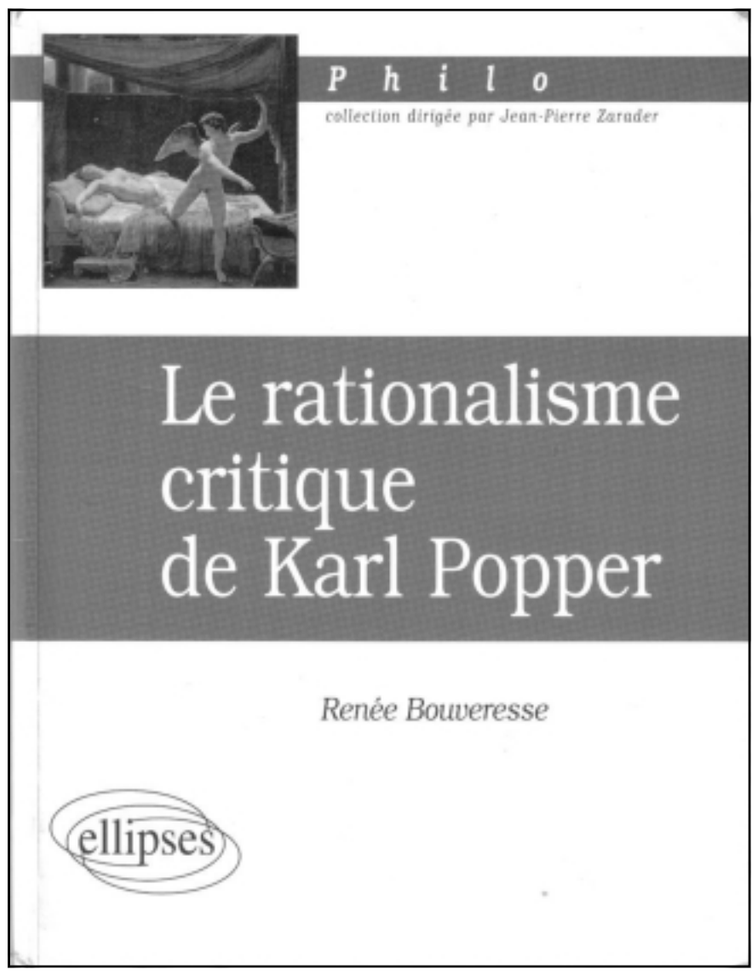

* كاتب وباحث من المغرب

AL-QUDS